القطار... يخترق الزمن والبشر

قصة بقلم عبد الهادي البكار

منذ سنين امارس عادة التدخين ـ تدخين التبغ والرجال ، وقبل ان يأتي الاشتعال على السيجارة كلها ، ارميها من بين انملي الصفراوين ، ادوسها بقدمي ، اضغط عليها حتى اجعل منها سطحا رقيقا لا انفاح فيه ولا امل . واجد ان هذه الرغبة تكاد ان تكون مستديمة عندي : ان افقد كل الاشياء حيويتها ، ثم اقف بين صفوف المتفرجين اهزأ من هذه النهاية التافهة التي يمكن ان تنتهي اليها اخيرا كل الاشياء على وجه العموم .

كنت صبية مثل الورد المندى عند الصباح ، اما هذه الصورة التي تعكسها لي المرآة المثبتة في (المصعد) ، فانها تؤكد لي من جديد كما تؤكد لي كل المرايا الاخرى ، انني في الطريق الى النقطة التي يصب فيها اخيرا ، السمو ، والمثل العليا ، والمباديء بشكل عام : التفاهة،والموت. لا اعتقد ان هذه (السيجارة) التي تعريني منذ الان بعينيها ونحن ما زلنا متجهين في (المصعد) نحو الطابق الثالث ، قد لاحظت انني استدرت فجأة الى الجهة المقابلة ، حين برزت صورتي المنعكسة بوضوح في اللوح الزجاجي المصقول ، واخفيت وجهي بكفي ، وتنهدت بمرارة ، ثم بكيت بصمت .

كانت الخمرة تتسابق منراكضة في عروقنا نحن الاثنين ، بنشاط مخدر ، لقد كرعت منها بغير ان اعد الاقداح ، اذ ان السكر كلما توغل في اعماقي ، ذاهبا بي بعيدا نحو ذكرياتي الغائرة في صدر ماضي القذر ، اذكى بي الرغبة في الاحتساء اكثر فأكثر ، فاستزيد منه مبتغية الضياع. تمنيت اكثر من مرة وانا انفث الدخان ، لو انني خيط في هذه الحزمة الدخانية التي تتلوى بحريتها في الفراغ ، مارة بالمعالم التي تختارها هي فتتلمسها كلها ، كما تشاء .. ثم تمضي في الفضاء .. من غير هدف .. ضياعا يذوب في ضياع .. وكلما مزجت في حلقومي الدخان بالخمرة، احس بالثقل وانا ادفع هذا المزيج الى الداخل ، مرة واحدة ، ثم استسلم لحزني ومرارتي والكآبة . ولكنني في هذه الليلة،وبالرغم من انني احتسيت ما لم اعد من الاقداح المملوءة ، لم ازل بعيدة عن الضياع . ان في رأسي شمسا متوهجة ، تفضح كل التفاصيل والحركات . وهذا المصعد المتحرك يقربني من الخطيئة التي اعتدت ان اشربها ببساطة وسهولة ، كل ليلة ، مرة .. مرتين ... واحيانا اتوه عن العد !

بعد ثوان يتوقف المصعد .. وتفتح (السيجارة) التي اعددتها للتدخين والاستهلاك ، الباب الخشبي ، لاتسلل عبر العتمة ، نحو غرفة لم أزرها من قبل . لقد اعتدت الا تفاجئني الاشياء الجديدة .. فقد مات عندي عنصر المفاجأة ، وتيقظت البلادة والسخرية والهزء واللا اكتراث.

انا الان راقصة ، ارتدي لباسا مغريا ، يطل منه فخذاي بوقاحة كل ليلة ، ليتمرغا في الاضواء ، ويستحما في بحر من الدخان المتصاعد من جميع الجوانب ، فاذا ما نالت القبول لدى احد الزبائن، دفع المساومة اولا باقداح كثيرة من الشمبانيا يشتري بها شجاعته ، ثم يشتريني بعد ان يفوز بالوقاحة ، ليجرني معه اخر الليل ككلبة ودود . لقد تعودت ان انفصل نهائيا عن جسدي حين يملكه الزبون المشتري ، احيانا بوساطة الاغفاء ، واحيانا اخرى في رحلة خيالية حزينة نحو الماضي.. نحو الطفولة الحلوة التي تبخرت الى الابد .

اسائل نفسي احيانا « الى اين ؟ » و « ماذا اخيرا ؟ » وحين تغمرني الكآبة التي يولدها هذا التساؤل باستمرار ، اهرب منها بانفراجة الشفتين الملوثتين بالاحمر والخطيئة والقبل . منذ ساعات مارست اذ انا في الملهى ، عادتي في التهرب من هذا التساؤل المتعب . كان الى جانبي ، الشاب ذاته الذي يعد جسده ونفسه منذ الان بحرارة ، وكان الملهى مزروعا بالاضواء الملونة ... وعلى بعد عدة مناضد مملوءة باقداح الخمرة والفاكهة والفراغ والمرض ، لمحته ينظر الي باصرار. قال لي فيما بعد ان اسناني اعجبته ، وان بسمتي مثيرة الى حد ينشط الشهوة الراكدة . كانت عيناه الصغيرتان تبدوان لي عبر السكر والدخان والاضواء الزرقاء ، كومتين صغيرتين من العتمة ، فيهما شيء ما .. شيء جاذب ، مغر .. كان يبدو حزينا بالرغم من انفراج شفتيه ، وتساءلت عما اذا كان يهرب مثلي هو الاخر ، من : (الى اين ؟)

لم اكن اخاف من الموت : ولم يكن تساؤلي ذاك الذي يخلف في الكآبة باستمرار ، ليرجع الى الموت الى العدم . كنت فقط ـ ولا ازال ـ احاول النفاذ بوساطة هذا التساؤل الى عالم انظف ... الى ليل خال من رائحة الشهوة والخمرة والزيف ... الى زوج واولاد ، فلقد اضعت حتى الان سبعة اولاد ، اسقطتهم مني في تيار من الدم والحزن والندم ، في حجم الجرذان الصغيرة .. وبهذه الوسيلة فقط ـ الاسقاط ـ استطعت ان افوز بالقسوة التي يستعين بها الضعفاء والجبناء عادة للتمكن من السيطرة ، او من المآزق التي تضعها فيطريقهم احيانا المثل العليا ، والسمو . لقد اعتدت ايضا ان احمل نفسي كرات القسوة لتساعدني على الهبوط مباشرة الى اعماق الخطيئة .. الى الحضيض ، اغرق في النتن والخمرة والشهوة .

كان الشاب يبدو لي انه في المرحلة الاولى بعد ، ولكنه بالتأكيد لم يتمكن بعد من الفوز مثلي بعنصر القسوة . فهو لم يستطع الهروب من هدف بسمتي . لقد اصطدته بها بسهولة ، كقطة طريفة . ولقد اثارني منه غموض عينيه الصغيرتين فعلا . شعرت بتيار ضئيل من الرغبة في تدخينه واستهلاكه . ان فيه شيئا من تحسين .. وشيئا من ابراهيم .. لقد خلفت (تحسين) في دمشق .. وخلفت (ابراهيم) في بغداد ... وفي احيان كثيرة اشعر بشوق ملح للالتقاء بهما . انني اخلف في كل بلد اتركها مغامرات كثيرة ، تبقى في ذاكرتي صورة احداها ـ اقواها على الاصح ـ . لم تكن مخلفاتي في (طهران) مثلا كفيلة بان تتكرر صورها مرة اخرى في مخيلتي . لقد جبت بلادا كثيرة ، ونفذ فخذاي البضان من خلال الثوب المقصب ، في اكثر من مئة مسرح ، كذلك كنت انفذ الى قلوب الاغبياء من الخمورين ، ثم الى محافظهم ، بوساطة هذين الفخذين العارمين اللذين اصيبا بعمى الاجساد ، فلم يعودا يميزان بين جسد

وجسد .. ولكنني سرعان ما اعود الى قوقعتي المعتمة بعد ممارستي عادة تدخين الرجال .

اكثر من ذلك .. هذا الشاب الصغير ، ذو العينين الغامضتين الحزينتين يعيد الي بعض صور طفولتي .. آه يا ايام الطفولة الزاخرة بعبق البراءة، وآه .. يا ايتها الخطيئات المتكدسة فوق جسدي ككومة من العقارب المتراكمة . ان الصور تأتيني مهزوزة ، يحجبها عني الخدر والنعاس والتعب . اكاد اتبين عبر هذه الستارة الكثيفة الفاصلة من الزمن ، القرية التي ترعرعت فيها .. قرية ذات احجار وارض سوداء ، في حوران . الرجال هناك قساة ، والنسوة تعودن على تأليه رغبة الرجل . كنت اشعر بامكانيتي وقناعتي لتقديم نفسي وجسدي لاي رجل يمكن ان يتيح لي فرصة الاطمئنان والكتمان . كان ابي فقيرا لدرجة مخجلة ، وكانت امي جميلة خلفت بنات كلهن جميلات ، انا اوسطهن. كنت اشعر احيانا بالطموح ، فاتخيل ان ابن امير القرية قد احبني وتزوجني .. وفي احدى الليالي شعرت بطموح ملح للسفر الى دمشق المدينة .. في دمشق المدينة يعرفون قيمة المرأة الجميلة ، والشوارع ليس فيها من روث البقر او الابل .. ربما يرشون هنالك رائحة الزنبق في كل مكان . وذات ليلة كنت فيها وحيدة واهلي في ضيافة جيراننا ، تعريت تماما امام المرآة ، واكتشفت امكانياتي .. وفوجئت بانها هائلة .. وتخيلت هذا الجسد البض وقد انحسر عنه الثوب البدوي الاسود ، ولفه ثوب هفهاف رقيق فاضح.. وانحسرت ايضا هذه (القمطة) التي تضم الرأس كلها ، فانسدل الشعر الفاحم من بعد متمتعا بحريته في الانتشار ... اي اغراء ! واية روعة يا زاهية ؟!.

★

كنت اطوي الليل احيانا من غير طعام . وبدأت اشعر بقيمة ان تكون المعدة ممتلئة ، ولم يكن في استطاعة ابي ان يعمل اكثر من فلاح مساعد.. واحيانا كان يمزقني بكاء امي، وشكوى شقيقاتي الصغيرات ... وفي نفس الوقت ، كانت فكرة الهرب تدق رأسي باستمرار، بينما معالم جسدي تتوضح وتتميز وتتضخم . وفي ليلة ليس فيها ضوء فاضح ، كان سائق السيارة الكبيرة الذي جاء الى قريتنا من دمشق ليشحن اكياس القمح، يضمني بين ذراعيه بوحشية ..

كانت السيارة تهزني بعنف وانا بين اكياس القمح الممتلئة ، وكانت تؤلمني في انضغاطها علي .. الا انني كنت اشعر بالخوف كلما توقف محرك السيارة فجأة ، ولا يلبث الاطمئنان ان يعود الي اذ يتحرك المحرك من جديد ، آخذا بي نحو المدينة .

وفي دمشق ، قال لي السائق المخمور ، ان لديه زوجة واطفالا ، ولكنه سيسكنني بيتا يستأجره لي . وفرحت .. لم يكن هو بالذات الهدف الذي ابتغيه .. كانت في راسي صورة مجهولة لامالي ، ولكنها كبيرة . كنت اريد من المدينة ان تقدم لي اشياء غير محدودة .. ان تقدم لي اشياء غير محدودة .. ان تقدم لي كل ما ارغب .

وبعد ايام ، غالب السائق العشيق في رحلة بعيدة لم يعد منها على الاطلاق. قالوا انه قد مات . وتعودت بعد ذلك ان اجوب الشوارع قبل ان اتعود اخير ا ان اجوب المدن .. وكنت القف نفسي لكل من رغب بي.. كان احدهم مرة طبيبا يداوي المرضى .. عرض علي ان اكون في عيادته ... ولم امانع . وبعد شهر ، بدأت اشعر بالاهانة . كان هنالك رجل آخر يعرض علي وظيفة بمرتب احسن: امرأة تجلس ليراها السكارى فقط في حانته . وسرعان ما انتقلت من رائحة الدواء الذي يدخل الجسد فيشفيه او يميته ، الى رائحة الدواء الذي يدخل النفس فيشفيها او يميتها ايضا .. واذا بي فجأة اجلس كالمزهرية خلف منضدة الحانة الرطبة ، (موديلا) لاحلام المخمورين ، تماما كتلك التي تتسمر في وضع معين تحت رحمة الفنان الرسام ، واما انا فقد كان علي ان اتسمر في وضع الاغراء امام ممتهني الاحتساء والهروب من قصصهم الحقيقية . ولم اقتنع بهذه النتيجة ، ولم تكن هذه هي الصورة الحقيقية لاحلامي المجهولة . كنت ارتحل الى امام ـ او الى وراء ـ لا ادري ـ .. كالمسافر بالقطار يمر بعدة محطات .. قد يتوقف في احداها مدة طويلة ، ولكن يبقى عنده شعور من ينتظر الانتقال بعد مدة ، فهو لا يلبث ان يستانف الحركة نحو النقطة الجديدة الاخرى . كان جسدي هو القطار الذي انتقلت به من القرية الى المدينة ، ومن العيادة الى الحانة ، ومن الحانة الى الملهى المزخرف بالضخب والزيف ، وها انذا على رصيف المحطة التي طالت فيها اقامتي سنين عديدة .. سنين ثقيلة كالكراهية .. سنين متباطئة المرور كساعات الاحتضار .

★

اصعد يا مصعد ... اصعد يا مصعد نحو المصير .

ـ تفضلي ...

وفتح لي الشاب ذو العينين الحزينتين باب المصعد ، ودلفت منه نحو غرفة جديدة لم ارها من قبل .. ككلبة ودود .. بينما اخفى ظلام الممر بحرا من الدموع والشقاء اغرورقت به عيناي وصدري .

القاهرة — عبد الهادي البكار

هذا الشهر يصدر :

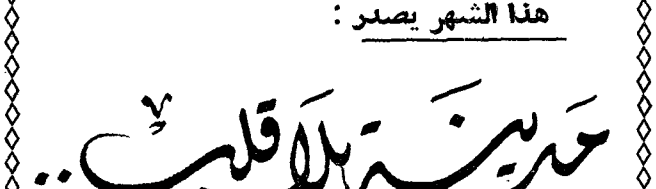

شعر

للشاعر العربي المجدد الاستاذ

احمد عبد المعطي حجازي

دار الآداب